

سورة القمر

هي مكية إلا قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الذُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » فمدنية .
 وعدة آياتها خمس وخمسون نزلت بعد الطارق .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) مشاكلة آخر السورة السابقة لأول هذه فقد قال هناك : أُرزقت الآزفة ، وقال هنا : اقتربت الساعة .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قد فصلت ماجاء في سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التي كذبت رسالها ، وتفصيل هلاكهم الذي أشار إليه في السابقة بقوله : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ، وَنَمُودًا فَمَا أَبْيَسَ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى »
 فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ (٦) خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) .

شرح المفردات

اقتربت : أى دنت وقربت ، وانشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض
وصار فرقتين ، آية : أى دليلا على نبوتك ، مستمر : أى مطرد دائم ، أهواءهم :
أى مازينه لهم الشيطان من الوسوس والأوهام ، مستقر : أى منته إلى غاية يستقر
عليها الاحالة ، الأنباء أخبار القرون الماضية وما حاق بهم من العذاب جزاء تكذيبهم
للرسل ، واحدها نبا ، بالغة : أى واصلة غاية الأحكام والإبداع ، تعن : أى تفيد
وتنفع ، والنذر : واحد من نذير بمعنى منذر ، فتول عنهم : أى لاتجاهلهم ولا تحاجهم ،
نكر : أى أمر تنكره النفوس إذ لا عهد لها بمثله ، خشعا : واحد من خشع : أى ذليل
والأجداث : القبور ، مهطعين : أى مسرعين إليه منقادين ، عسر : أى صعب
شديد المول .

المعنى الجملى

يخبر سبحانه باقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها وأن الأجرام العلوية يختل
نظامها على نحو ما جاء فى قوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ »
روى أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس
تعرب ولم يبق منها إلا سفّ يسير ، فقال : والذي نفسى بيده ما بقى من الدنيا فيما مضى
منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذَا ، وَأَشَارُ بِإِصْبَعِيهِ السَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى » .

ثم ذكر أن الكافرين كلما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا وكذبوا بها
وقالوا إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضا ؛ ثم أخبر أن أمرهم سينتهى بعد حين

وسيستقر أمرك ، وسينصرك الله عليهم نصرا مؤزرا ، ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جد كافية لهم لو أن لهم عقولا يفكرون بها فيما هم قادمون عليه ، ولكن أنى تعنى الآيات والنذر عن قوم قد أضلهم الله على علم وختم على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ؟ . ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم ، وسيخرجون من قبورهم أذلاء ناكسى الرؤوس مسرعين إلى إجابة الداعى يقول الكافرون منهم هذا يوم شديد حسابه ، عسر عقابه .

الإيضاح

(اقتربت الساعة) أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة ، وقرب انتهاء الدنيا وهذا كقولہ : « أُنَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » .

(وانشق القمر) أى وسينشق القمر وينفصل بعضه من بعض حين يتخيل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض ، ونحو هذا قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة .

ويرى جمع من المفسرين أن هذا حدث قد حصل ، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شعثين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما ، وفى الصحيحين وغيرها من حديث ابن مسعود : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة على الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا » .

وجاء عنه أيضا : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . فقال رجل انتظروا ما يأتيكم به السفّار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس ، فجاء السفار فأخبروهم بذلك ، رواه أبو داود والطيالسي » وفي رواية البيهقي « فسألو السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه ، فأنزل الله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر » .

والذي يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لاعتناق ماضٍ - أمور :
(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة ، والظاهر تجانس الخبرين وأنها خبران عن مستقبل لاعتناق ماضٍ .

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم ، وبلغ حدا لا يمكن أحدا أن ينكره ، وصار من المحسوسات التي لا تدفع ، وإضمار من المعجزات التي لا يسع مسلما ولا غيره إنكارها .

(٣) ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شد أن هذه معجزة بلغت حد التواتر ، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواه آحادا ، بل كانوا لا يعدّون كثرة .

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح فارس فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : اقتربت الساعة وانشق القمر ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذت بفرأق ، ألا وإن اليوم المضار وغدا السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة ، فهذا الكلام من حذيفة في معرض قرب مجيء الساعة وتوقع أحداثها ، لافي كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول وإثباتا لنبوته ، لأن ذلك كان في معرض العظة والاعتبار .

وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة وكان ذلك مما يستدعى انتباههم من غفلتهم ، والتفكير في مصيرهم ، والنظر فيما جاءهم به من الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته ، والمؤيدة

لصدقه ، لكنهم مع كل هذا ما التفقتوا إلى الداعى لهم إلى الرشاد ، والهادى لهم إلى سواء السبيل ، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال :

(وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أى وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك ، وترشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك ، يعرضوا عنها ويولوا مكذابين بها منكرين أن يكون ذلك حقا ، ويقولوا تكذيبا منهم بها : هذا سحر سحرنا به محمد ، وهو يفعل ذلك على مرّ الأيام .

وفى هذا إيماء إلى ترادف الآيات ، وتتابع المعجزات .

وقال الكسائى والفرء واختاره النحاس : إن المراد بالمستمر الذهاب الزائل عن قرب ، إذ هم قد علاوا أنفسهم ومثّوها بالأمانى الفارغة ، وكأنهم قالوا : إن حاله عليه السلام وما ظهر من معجزاته إن هى إلا سحابة صيف عن قريب تقشع ، ولكن أيّهات أيّهات ، فقد غرّتهم الأمانى (وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أى وكذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به أهواؤهم ، لجهلهم وسُخف عقولهم .

والخلاصة — إنهم كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا حججه وقالوا : هو كاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال ، وساحر يسترهب الناس بسحره ، إلى أشباه هذا من مقالاتهم التى تدل على العناد وعدم قبول الحق .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(وكل أمر مستقر) أى وكل شىء ينتهى إلى غاية تشاكله ، فأمرهم سينتهى إلى الخذلان والعذاب الدائم فى الآخرة ، وأمرك سينتهى إلى النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

وهذه قاعدة عامة تنضوي تحتها حركات الكواكب والأفلاك ونظم العمران وأعمال الأفراد والأمم .

وقصارى ذلك — إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيصل إلى غاية يقين عندها أنه الحق ، وأن ما سواه هو الباطل ، وقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت ، والباطل يزهد بحسب ما وضعه في نظم الخليقة (البقاء الأصلاح) .

ثم ذكر أنهم في ضلال بعيد ، فإن ما جاء في القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون ، قال :

(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أى ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك واتبعوا أهواءهم — من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل فأحل الله بهم من العقوبات ما قصه في كتابه — ما يردعهم ويذجرهم عما هم فيه من التبايح ، إذ أبادهم في الدنيا وسيعذبهم يوم الدين جزاء وفاقا لما دنسوا به أنفسهم من الشرك برهيم وعصيان رسله ، واجترأهم للسيئات .

ثم بين الذى جاءهم به فقال :

(حكمة بالغة) أى هذه الأنباء غاية الحكمة فى الهداية والإرشاد إلى طريق الحق لمن اتبع عقله وعصى هواه .

(فما تنذرن النذر) أى إن النذر لم يبعثوا ليلجئوا الناس إلى قبول الحق ، وإنما أرسلوا مبغضين فحسب ؛ فليس عليك ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى ، فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها فى نحو قوله « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وتول عنهم بعدئذ .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

ثم أمر رسوله ألا يجادلهم ولا يناظرهم فإن ذلك لا يجدى نفعاً فقال :

(فتول عنهم) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين المكذبين ولا تحاجهم ،

فإنهم قد بلغوا حدا لا يقنعون معه بحجة ولا برهان ، فأحرى بك ألا تلتفت إلى نصيحهم وإرشادهم ، فقد عيبت بأمرهم ، وبرمت بمنادهم .

(يوم يدعو الداع إلى شيء تكرر) أى واذكر حين ينادى الداعى إلى شيء فظيع تنكره نفوسهم ، إذ لاعهد لها بمثله ، وهو موقف الحساب وما فيه من أهوال . وقد جرت العادة أن من ينصح شخصا لا يؤثر فيه النصيح أن يعرض عنه ويقول لسواه ما فيه نصيح للمعرض عنه ، وهدايته وإرشاده لو أراد .

ثم ذكر حال الكافرين في هذا اليوم فقال :

(خشعاً أبصارهم يخرجون من الأحداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون ، كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى - جراد قد انتشر فى الآفاق .

وجاء تشبيههم فى الآية الأخرى بالفراش بقوله « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » .

وهم يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فرعين لا يهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لاجهة لها تقصدها ، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب .

(مهطمين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون هذا يوم شديد الهول سيء المنقلب .

ونحو الآية قوله : « فذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لاعسر فيه ولا مشقة .

قصص بعض الأنبياء مع أممهم

(۱) قصص قوم نوح

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (۹)
 فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمٍّ (۱۱)
 وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
 الْأَوْحَانِ وَدُسِّرِ (۱۳) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا (۱۴) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
 آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ (۱۶) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
 الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (۱۷) .

شرح المفردات

وازدجر : أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف ، فانتصر : أى فانتقم
 لى منهم ، منهمر : أى كثير كما قال :

أعيناي جودا بالدموع الهوامير على خير بادٍ من مَعَدٍ وحاضر
 فاللقى الماء : أى ماء السماء وماء الأرض ، على أمر : أى على حال ، قد قدر :
 أى قد قدره الله فى الأزل ، ذات ألواح : أى ذات خُشْب عريضة ، دسر : أى مسامير
 واحدها دسار ككتب وكتاب ، بأعيننا : أى برأى منا والمراد بمراستنا وحفظنا ،
 كفر : أى جحد به وهو نوح عليه السلام ، تركناها : أى أبقينا السفينة ، آية :
 أى علامة ودليلا ، مدكر : أى متذكر ومعتبر ، ونذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ،
 يسرنا : أى سهلنا ، للذكر : أى للظة والاعتبار ، مدكر : أى متعظ بمواعظه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لوتذكروا
 لكن لم تغتبه تلك الزواجر شيئاً - أردف هذا بذكر قصص من قباهم من الأمم
 كقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا يبدع في الأمم ، بل كثير منهم
 فعلوا ما لا قيت ، فلا تأس على ما فرط منهم ولا تبتئس بما كانوا يفعلون كما جاء
 في قوله سبحانه: «فَلَمَّا كَبَبُوا بِرِجَالِهِمْ فِي السُّجُودِ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ آتَاكُمْ
 فِي هَذِهِ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» . وفي هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم ، وأنهم
 إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قباهم ، وينجى نبيه
 والمؤمنين كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نعمة التي أحياها بأمرهم .

الإيضاح

(كذبت قباهم قوم نوح) أى كذب قبل قومك قوم نوح فكانوا أسوة
 لمن بعدهم من المكذبين للرسول .
 ثم فصل هذا التكذيب بقوله :

(فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر) أى فكذبوا عبدنا نوحا ونسبوه إلى
 الجنون ، وزجروه وتوعدهوه لأن لم ينته ليكون من المرجومين .
 وأضاف العبد إليه في قوله «عَبْدَنَا» للإشارة إلى أنه لم يعبد سواه ، فهو
 في جميع أفعاله لله ؛ وإلى أنه صادق في دعواه النبوة ، فهو لا ينطق عن الهوى ،
 فتكذيبهم له قبيح غاية القبح ، بانتهاء العتو والإنكار .

ثم بين أنه حيل بهم صبرا ، وضاق بهم ذرعا فدعا عليهم فقال :
 (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) أى فدعا نوح ربه قائلا إن قومي قد غلبوني
 تمردا وعتوا ولا طاقة لى بهم ، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك .

وقصارى ذلك — انتصر لك ولدبئك ، فإني قد غلبت وعجزت عن الانتصار لهما .

ثم أخبر سبحانه أنه قد أجاب دعاءه فقال :

(ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر) أى فصببنا عليهم ماء ثجاجا من السماء ؛

وتقول العرب فى المظر الوابل : جرت ميازيب السماء . روى أنهم طلبوا المظر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا .

وفى الآية إيماء إلى أن الله انتصر منهم ، وانتقم بماء لا يجند أنزله .

(وجفرتنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة .

(فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى فالتقى الماء أى ماء السماء وماء الأرض

على أمر قد قدره الله وهو هلاكهم بالطوفان .

والخلاصة — إن الله أرسل ماء السحاب مدرارا ، وأخرج من الأرض ماء

ثجاجا ، فالتقى الماءان فأحدثا طوفانا على وجه الأرض ، فأغرق به قوم نوح ،

وتجاء نوح بركوب سفينته التى بناها كما أشار إلى ذلك فى هود بالتفصيل وأشار إليه

هنا بقوله :

(وجملناه على ذات ألواح ودسر) أى وأتقنناه من الطوفان فجملناه على سفينة

ذات خشب ومسامير .

وجاء فى سورة العنكبوت « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب

السنن التى وضعها فى الخليقة ، وأنه يمهل الظالمين ، ولا يهملهم كما جاء فى الحديث

« إن ربك لا يهمل ولكن يمهل وتلاقوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ

الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ) » .

ثم أشار إلى أنه كان محروسا بعناية الله وكلاءته فقال :

(تجرى بأعيننا) أى تجرى محفوظة بحراستنا ، فقد كانت بمراى منا

يتنحن نكلؤها وترعاها ، كما يرعى المرء ما يراه بعينه ، ويقع تحت سمعه وبصره ،

ويقول القائل إذا وصى آخر على أمر وشدد عليه : اجمله نُصِبَ عينيك أى اهتم به ولا تهمله .

ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم ، وكفرهم بربهم فقال :

(جزاء لمن كان كافر) أى فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا ، ووجودهم بنعائنا ، وتكذيبهم برسولنا .

ثم ذكر أنه أبى السفينة عبرة لمن بعدهم على كره الدهور والأعوام فقال :

(ولقد تركناها آية) أى ولقد جعلنا السفينة التي حملنا فيها نوحا ومن معه -

عبرة لمن بعده من الأمم ، ليدبروا ويتعظوا ويرعوا أن يسلكوا مسلكهم وينهبوا نهجهم في الكفر بالله وتكذيب رسوله ، فيصيهم مثل ما أصابهم من العقوبة ؛ وقد روى أن الله حفظها آمادا طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجودي . وقال قتادة أبقاها الله بباقردي من أرض الجزيرة حتى أدركتها أوائل هذه الأمة .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا

لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعْمِيَةً أُنْذِرَ وَعَائِمَةً » .

(فهل من مدكر؟) أى فهل من معتبر بتلك الآية الحريية بالاعتبار ، الجديرة

بطويل التفكير والتأمل في عواقب المكذبين برسول الله ، الجاحدين بوحدايته ،

المتخذين له الأنداد والأوثان .

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال :

(فكيف كان عذابي ونذر؟) أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ،

وما أقطع إنذارى لهم بما أحلته بهم من النعمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل

مكذب جبار .

ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد ، وعظيم التهديد ، لكل باغ عنيد ،

ساخط على الرسل ، مكذب بربه .

والخلاصة — انظر كيف كان عذابي لمن كفر بى ، وكذب رسلى ، وكيف انتصرت لهم ، وأخذت أعداءهم بما يستحقون ؟ .

ثم ذكر أن هذا القصص وأمثاله إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى فقال :

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) أى ولقد سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، وملائناه بأنواع العبر والمواعظ ، ليمتع به من شاء ، ويتدبر من أراد « وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » وقوله : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .
(فهل من مدكر) أى فهل من متعظ به ، مزدجر عن معاصيه ، أى ما أقل من تذكر به ، واتعظ بأمره ونهييه .

(٢) قصص عاد قوم هود

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (٢١) وَلَقَدْ يَمَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الريح الصرصر: الباردة أشد البرد ، والنحس : الشؤم ، منقعر : أى مقتلع من أصوله ؛ يقال قعرت النخلة : أى قلعته من أصلها فانقعرت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص قوم نوح وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر ، أعقبه بقصص عاد قوم هود ، ليمين للكاذبين أن عاقبة كل مكذب الهلاك والبوار وإن تعددت أسبابه .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد .
فقد أرسل الله عليهم ريحا عاصفا ، لصوتها صرير حين هبوطها فى يوم شؤم عليهم ، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار ، وكانت الريح لشدها تقتلع الناس من الأرض وترفعهم إلى السماء ثم ترمى بهم على رؤوسهم ، فتندق رقابهم ، وتبين من أجسامهم ، فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسوله ، كما هى سنة الله فى أمثالهم من المكذبين .

الإيضاح

(كذبت عاد) أى كذبت عاد بنبيهم هودا فيما أتاهم به عن الله ، كما كذبت قوم نوح من قبلهم بنبيهم .

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابى إياهم وعقابى لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هودا ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى النى والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء لما يلقى إليهم قبل ذكره ،

وتعجب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذارى لهم .

ثم فصل ما أجمله أولا فقال :

(إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر) أى إنا بعثنا إلى عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بربهم ريحا شديدة العصفوف في برد ، نصوتها صرير في زمن شؤم ونحس عليهم ، إذ ما زالت مستمرة حتى أهلستهم .

ونحو الآية قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » وقوله : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة . وما روى من شؤم بعض الأيام فلا يصح شيء منه ، فالأيام كلها لله ، لا ضرر فيها لذاتها ، ولا محذور منها ، ولا سعد فيها ولا نحس ، فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشر لهم ، فكل منها يتصف بالأمرين إلا إنما الأيام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس وينسبون فى ذلك أبياتا لعلى كرم الله وجهه ، لا يصح منه شيء ، وإنما هو نزغات شيعية لاتستند إلى ركن من الدين ركين .

(تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) أى تقطعهم حتى يصيروا كأنهم أعجاز نخل قد انقطع من مغارسه فى الأرض .

وفى الآية إيحاء إلى أن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى الأجسام ولا رؤوس لها ، وإلى أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال كالنخل ، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم فى الأرض وقصدوا بذلك مقاومة الريح ، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة لشدة بردها .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانها فقال :

(فكيف كان عذابي ونذر) أى فانظروا كيف كان عذابي وإنذارى ،

وقد كرره تعظيماً لشأنه ، وهذه سنة في بليغ الكلام ، في باب النصح والإرشاد ،
وباب التهديد والوعيد ، وقد يكون الأول إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثاني إلى
عذاب الآخرة كما جاء في قصصهم في آية أخرى « لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْحِزْيِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » .
(ولقد يسرنا القرآن لئذ نذكر فهل من مدكر) الكلام فيه كسابقه فلا نعيده .

(٢) قصص ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأَلْقَى اللَّهُ كُرًّا عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥)
سَيَعْمُونَ غَدًا مِن الكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ
فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ
مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَتَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِي (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ (٣٢) .

شرح المفردات

بالنذر : أى بالرسول ، وتكذيب صالح تكذيب لهم جميعاً لاتفاقهم جميعاً على
أصول الشرائع ، والسعر : أى الجنون ؛ ومنه ناقة مسعورة : إذا كانت تفرط في سيرها
كأنها مجنونة ، والذکر : الوحى ؛ والمراد بالند وقت نزول العذاب بهم ، والأشـر
شديد البطر ؛ والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقوقها ،

فتنة : أى امتحانا واختبارا ، فارتقبهم : أى فانتظرهم ، واصطبر : أى واصبر على أذاهم ، والشرب : النصيب ، محتضر : أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقاة مرة ويحضرون أخرى ، صاحبهم : هو قُدار بن سالف أحميرِ ثمود ، فتعاطى : أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، فعقر : أى فضرب قوائم الناقاة بالسيف ، صيحة واحدة : هى صيحة صاحبا جبريل عليه السلام ، والمهشم : ما تهشم وتفتت من الشجر ، والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة فتتساقط منه بعض أجزاء وتفتت حال العمل .

المعنى الجملى

قص الله علينا قصص ثمود مع نبيها صالح ، إذ قالوا : أنحن العدد الجمّ ، والكثرة الساحقة ، نتبع واحدا منا لا امتياز له عنا ؟ إنا إذا فعلنا ذلك لفى ضلال وبعد عن محجة الصواب ، وإنه لكاذب فيما يدعيه من الوحي عن ربه ، وما هو إلا بشر وليس بملك ، فقال لهم ربهم : سيعلمون بعد وقت قريب من الكذاب البطر ؟ وقد جعلنا ناقية فتنة واختبارا لهم ، فأمرناه أن يخبرهم بأن ماء البئر يقسم بينها وبينهم ، فلها يوم ولهم آخر ، فما ارتضوا هذا وقام فاسقهم قُدار وعقر الناقاة نغرت صريعة ، فجازاهم الله فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالمهشم الذى يتفتت حين بناء حظيرة الماشية .

الإيضاح

(كذبت ثمود بالنذر) أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقهم ، وهم وإن كذبوا صالحا فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعا ، لاتفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجىء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال :

(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟) أى أتتبع واحدا من الدهماء ، لامن عليّ

القوم ولا من أشرفهم ، وليس له ميزة عن امرئ منا يعلم ظاهر ولا ثروة وغنى تجعله يدعى أن يكون الزعيم لنا .

ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم :

(إنا إذا لقي ضلال وسعرا) أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضلنا الصراط السوى ،

وجانبنا الصواب ، وصرنا لأمحالة إلى الجنون الذى لا يرضى به عاقل لنفسه .

روى أن صالحا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعرا ،

فكسروا عليه مقالهم بعتوهم واستكبارهم فقالوا : إنا إن اتبعناك كنا كما تقول :

ثم بالغوا فى العتو والإنكار وتعجبوا من أمره ونسبوه إلى الاختلاق

والكذب فقالوا :

(أأتى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشرا) أى أنزل عليه الوحي من

بيننا وأتى النبوة وهو واحد منا ؟ وكيف اختصه الله بإنزال الشرائع عليه وهو ليس

بملك مكرّم ؟ الحق إنه لكذاب متعجب ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان

علينا ، ويود أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به

الشیطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له وتهديدا لقومه ووعيدا لهم فقال :

(سيعلمون غدا من الكذاب الأشرا ؟) أى سيعلمون عن قريب حين يحل

بهم الهلاك الدنيوى - من الكذاب البطر الذى حمله بطره على ما فعل ، أصالح

فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق

مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ؟

وقصارى ذلك - سيتبين لهم أنهم هم الكذابين الأشرون .

وأورد الكلام على طريق الإيهام للإشارة إلى أنه مما لا يخفى ، جريا على أساليبهم

كقوله تعالى أمرارسوله أن يقول للمشركين : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى

أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » وقوله :

فإن لقيتكم خاليين لتعلمن^١ أي وأيك فارس الأحزاب

ثم ذكر مقدمات العذاب للموعود به فقال :

(إنا مرسلو الناقة فتنه لهم) أى إنا مخرجوا الناقة من الهضبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنه واختبارا لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه ويكفرون به ؟ .

(فارتقبهم واصطبر) أى فانتظر ماذا هم فاعلون ؟ وأبصر ماذا هم صانعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى وأخبرهم أن ماء البئر التى لهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصه منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعل القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم .

(فنادوا صاحبهم فعاتبى فعقر) أى فمات نمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص من الناقة ، فنادوا قدار بن سالف وكان أشقاها ليعقرها وحضوه على ذلك ، فلبى طلبهم وتناولها بيده وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة .

ثم ذكر عقابهم الفظيع فقال :

(فكيف كان عذابي ونذرى ؟) قد سبق تفسير هذا .

ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أى إنا أرسلنا جبريل

فصاح بهم صيحة فصاروا كالخشيش البالى الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته ، وكانهم هلكوا من أمد بعيد .

وقصارى ذلك — إنهم بادوا عن آخرهم ولم تبق منهم باقية ، وهمدوا كما يهد
يبس الزرع والنبات .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) مر بيان هذا .

(٤) قصص قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنَّا بِكُلِّ قَوْمٍ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥)
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِهِ
فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ
مُسْتَقَرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي (٣٩) وَلَقَدْ يَمَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدْكِرٍ (٤٠) .

شرح المفردات

حاصبا : أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ، قال فى الصحاح : الحاصب
الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، والحَصَبُ (بفتححتين) ما تحصب به النار : أى
ترمى ، وكل ما ألقىته فى النار فقد حصبتها به ، والسحر : السدس الأخير من الليل ،
وقال الراغب : السحر والشُّجْرَة : اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار ، والبطش :
الأخذ الشديد بالعذاب ، وتماروا بالنذر : أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ،
راودوه عن صيفه : أى صرفوه عن رأيه فىهم فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا
بهم ، فطمسنا أعينهم : أى فجبناها عن الأبصار فلم تر شيئا ، بكرة : أى أول النهار ،
مستقر : أى دائم بهم إلى أن يهلكوا .

المعنى الجملى

ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبیهم ومخالفتهم إياه ، واجتراحهم من السیئات ما لم یسبقهم به أحد من العالمین ، بإتیانهم الذکران دون النساء ، ثم أردفه بذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل علیهم إلا من آمن منهم ، فقد نجاهم بسحر ، وما أهلکهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله فكذبوه .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط بالنذر) أى كذبت قوم لوط بآیات الله التى أنذرهم بها .
ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب ونجاة من آمن منهم فقال :
(إنا أرسلنا علیهم حاصبا إلا آل لوط نجیناهم بسحر) أى إنا عاقبناهم بإرسال ریح تحمل الحصباء ، وما زالت بهم حتى دمرتهم ، إلا من آمن منهم ، فإننا أمرناهم بالخروج آخر الليل لینجوا من الهلاك .

ثم بین أن سبب إنجاء المؤمنین هو شکرانهم للنعمة فقال :
(نعمة من عندنا كذلك نجزي من شکر) أى أنعمنا علیهم بالنجاة كرامة لهم منا ، وهكذا نجزي من شکرنا على نعمتنا وأطاعنا فائتم بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

ثم ذكر أنه ما أهلک من أهلک إلا بعد أن أنذرهم عذابه وخوفهم بأسه فقال :
(ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) أى ولقد كانوا قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم نبیهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به .

ثم بین جرمهم الذى استحقوا به العذاب فقال :
(ولقد راودوه عن ضیفه) أى طلبوا منه ضیوفه وهم الملائكة الذين جاءوا

في صورة شباب مُرْد حسان ، محنة من الله لهم، إذ قد بعثت إليهم امرأته العجوز السوء فأعلمتهم بأضيافه ، فأقبلوا إليه يُرْعَوْنَ من كل مكان ، فأغلق لوط عليهم الباب ، فجعلوا يعاجلونه ليكسرود ، وهو يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه ويقول لهم : هَوِّلَاءَ بِنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ ، فقاتلوا له : لقد علمت مالنا في بناتك من أرب ، وإنك لتعلم ما تريد ، فلما اشتد بينهم الصراع وأبوا إلا الدخول — طمس الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فطمسنا أعينهم) فجعل بعضهم يحول في بعض ولا يرون شيئا ، ويقولون : أين ضيوفك ؟ وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة هود .

(فذوقوا عذابي ونذر) أى وقلنا لهم على السنة ملائكتنا : ذوقوا هذا العذاب عذاب طمس الأعين بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم وقبيح خلالكم .

ثم بين وقت مجيء العذاب فقال :

(ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور وما زال مُلِحًّا عليهم حتى أخذهم وبلغ غايته في دمارهم وهلاكهم .

ثم حكى ما قيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديدا للعذاب فقال :

(فذوقوا عذابي ونذر) أى فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل ، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل .

(ولقد يسرنا القرآن للذکر فهل من مدكر) هذه الجملة القسمية وردت في آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريرا لمضمون ما سبق من قوله : (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مردجر) وتلبيها إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الأدكار ، كافية في الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار .

وقد جاء هذا التكرير فيما سأتى في سورة الرحمن من قوله : « فَبَأَى آآَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله في سورة المرسلات : « فَوَيْلٌ لَّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وهذا كثير في كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هامّ الأمور ، كقول
مبلول في رثاء أخيه كليب حين قتل :

قرباً مربوط النعمة منى لقيت حرب وأبل عن حبالى

قرباً مربوط النعمة منى شاب رأسى وأنكرتني عيالى

وهى طويلة جارية على هذا : السنن ، والنعامة فرسه ، ولقيت : أى حملت .

(٥) قصص آل فرعون

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) .

شرح المفردات

الذذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ؛ وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى
صلى الله عليه وسلم . عزيز : أى لا يقاب ولا يغلب ، مقتدر : أى لا يعجزه شئ .

الإيضاح

(ولقد جاء آل فرعون الذذر) أى وتالله لقد توالت عليهم الإنذارات ،
وجاءتهم الآية تلو الآية فكذبوا بها .

ثم أبان ما فعلوه على توالى الذذر فقال :

(كذبوا بآياتنا كلها) أى كذبوا بأدلتنا وبرهاننا التى أرسلناها إلى موسى ،

وقد تقدم ذكرها فى سورة الأعراف .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) أى فعاقبناهم بكفرهم بالله - عقوبة مقتدر على ما يشاء غير عاجز ولا ضعيف .

توبيخ قريش على كفرهم برحمتهم

وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الذُّبُرَ (٤٥)

بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ (٤٦) .

شرح المفردات

براءة : أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، والزبر : الكتب السماوية واحدها زبور ، يولون : أى يرجعون ، والذبر : أى الأدبار هاربيت منهزمين ، والساعة : هى القيامة ، موعدهم : أى موعد عذابهم ، أدهى : أى أعظم داهية وهى الأمر الفظيع الذى لا يهتدى للإخلاق منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، وأمر : أى أشد مرارة فى الذوق؛ والمراد الشدة والهول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، وفضل ما أصيبوا به من عذاب الله الذى لا مرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله - أعقب هذا بتنبئه كفار قريش إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم فستحل بهم سنتنا ، ويحقيق بهم من البلاء مثل ما حل بأصراهم من المكذبين من قبلهم ، ولا يجدون منه محيصا ولا مهربا ، ثم خاطبهم خطاب إنكار

وتوبيخ فقال لهم : علام تتكلمون ، وماذا تظنون ؟ أأنتم خير من سبقكم عدداً وكثرة مال وبطشا وقوة ، أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتهم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون أنكم جمع كثير لا يمكن أن ينال بسوء ، ولا تصل إلى أذاكم يدُهما أوتيت من القوة ؟ كلا إن شيئاً من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهزمون وتولون الأدبار في الدنيا وسيحل بكم قضاء الله الذي لا مفر منه ، وما سترونه في الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالا ، فأيقوا من غفلتكم ، وأنبيوا إلى ربكم ، عسى أن يرحمكم .

الإيضاح

(أ. كفاركم خير من أولئكم) أى أ كفاركم يامعشر قریش خير من أولئكم الذين أحلت بهم تقمى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابي وتقمى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى .

وتلخيص المعنى — ما كفاركم خير من سبقهم ، فهم ليسوا بأكثر منهم قوة ، ولا أوفر عددا ، ولا ألين شكيمة فى الكفر والمعصيان والضلال والظنيان ، بل هم دونهم فى كل ذلك ، وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم ، فكيف يطمعون فى المهرب من مثل ذلك ، فليشربوا إلى رشدهم ، وليرجعوا عن غيرهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

ثم انتقل من توبيخهم الأول إلى توبيخ أشد منه فقال :

(أم لكم براءة فى الزبر) أى أم لكفاركم صك بالبراءة من تبعات ما تجترحون من السيئات ، وأن ربكم لن يعاقبكم على ما تدسون به أنفسكم من الشرور والآثام ؟ فأنتم على هذا الصك تعتمدون ، وبهذا الوعد آمنون ، حقا إنكم لتطمعون فى غير مطمع ، وليس بين أيديكم ولا قلامه ظفر من هذا — فعلام تتكلمون ؟ وإلام تستندون ؟

(أم يقولون نحن جميع منتصر) أى أم هم يقولون نحن واثقون بشوكتنا ، فنحن قوم أمرنا مجتمع ، لانزام ولا نضام ، وإنا منصورون على من قصدنا بسوء ، أو أراد حربنا وتفريق جمعنا .

وجام القول — إنه تعالى سدّ عليهم المسالك ، ونقض جميع المعاذير التي ربما تملأوا بها في عدم تصديقهم بالرسول، وفي كفرهم بآيات ربهم، فقال لهم : لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم ؟ أأنتم أقل كفرا وعنادا منهم ، فيكون ذلك سبب الأمن من حلول مثل عذابهم بكم ؟ أم أعطاكم الله براءة من عذابه ؟ أم أنتم أعز منهم جندا فأنتم تنتصرون على جنده الله ؟

ثم رد عليهم مقالهم وأبان لهم أنهم يعيشون في بحر من الأوهام ، وأن قضاء الله سيحل بهم ، وسيهزمون ويولون الأدبار متى جاء قضاؤه فقال :

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى سيتفرق شملهم ويُغلبون حين يلتقى جيشهم وجيش المؤمنين ، وقد صدق الله وعده ، فانهزموا وولوا الأدبار يوم بدر ، وكان هذا دليلا من دلائل النبوة ، فإن الآية نزلت بمكة ولم يكن له صلى الله عليه وسلم يومئذ جيش ، بل كان أتباعه مشرّدين في الآفاق ، يلاقون العذاب من المشركين في كل صوب ، حتى لقد قال عمر رضى الله عنه : لما نزلت لم أعلم ما هي ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع فعلته — ثم استمر انهزامهم بعد .

روى البخارى عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعبّد بعد اليوم في الأرض أبداً ، فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع ويقول : (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) » .

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا وسيلاقون يوم القيامة ما هو أشد منه نكالا فقال :
 (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) أى إن ماسيلاقونه من العذاب
 فى الدنيا من المزيمة والقتل والأسر - هين إذا قيس على ماسيلاقونه من العذاب
 فى الآخرة ، فإن ذا أشد وآلم ، فهو عذاب خالد دائم ، وسيأتى بعدُ وصف ما فيه
 من فظاعة ونكر .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى
 وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا
 أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ
 مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
 مُسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ
 مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) .

شرح المفردات

المراد بالجرمين : المشركون كما جاء فى قوله : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ » .
 فى ضلال : أى فى الدنيا عن الحق ، وسعر : أى نيران واحدها سعيير ، يسحبون :
 أى يجرون ، سقر : اسم لجهنم ، ومسها : حرها ، بقدر : أى مقدر مكتوب فى اللوح
 المحفوظ ، أمرنا : أى شأننا ، واحدة : أى كلمة واحدة وهى قوله (كن) كلمح البصر :
 أى فى البسر والسرعة ، أشياعكم : أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ،
 واحدهم شيعة ؛ وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، مدكر : أى متعظ ، فى الزبر :
 أى فى كتب الحفظ ، مستطر : أى مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله ، نهر : أى

في نور وضياء ، في مقعد صدق : أى في مكان مرضى ، عند مليك مقتدر : أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب الأمم الماضية لرسالتها كما كذبت قريش نبيها ، وأعقبه بذكر ما أصابهم في الدنيا من العذاب والهوان — أردف ذلك بذكر ما سينالهم من النكال والوبال في الآخرة ، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سوقا ، إهانة وتحقيرا لهم ، ويقال لهم حينئذ توبيخا وتعنيفا : ذوقوا عذاب النار وشديد حرها ، ثم أعقبه ببيان أن كل شيء فهو بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التي كذبت رسالتها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ؛ ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون في جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(إن المجرمين في ضلال وسعر) أى إن المشركين بالله المكذبين لرسله — في ضلال عن الصراط المستقيم ، وعماية عن الهدى في الدنيا ، وعذاب أليم في نار جهنم يوم القيامة .

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة والإذلال حينئذ فقال :

(يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) أى يعذبون ويهانون يوم يحبرون على وجوههم في النار ، ويقال لهم إيلاما وتعنيفا : ذوقوا حر النار وآلامها جزاء وفاقا لتكذيبكم رسل ربكم في كل ماجاءوا به من الإنذار بهذا اليوم ، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب ، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب .

ثم بين أن كل ما يوجد في هذه الحياة فهو لا يحدث اتفاقاً ، وإنما يحصل بقضاء الله وقدره فقال :

(إنا كل شيء خلقناه بقدر) أى إن كل كائن في هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها فى الخليقة .

ونحو الآية قوله : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَدْوِيْرًا » وقوله : « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » وفى الحديث الصحيح « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر قتل : قدر الله وما شاء فعل ، ولا نقل لو أنى فعلت لكان كذا ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفت الأقلام ، وطويت الصحف » .

وبعد أن بين نفاذ قدره فى خلقه بين نفاذ مشيئته فيهم فقال :

(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنا إذا أردنا أمراً قلنا له كن فإذا هو كائن ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية ولا ثالثة ، والله در القائل :

إذا أراد الله أمراً فإمّا يقول له (كن) قولة فيكون

وهذا تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الخلق ، فهى كلمح البصر أو هى أقرب .
وجماع القول - ما أمرنا للشيء إذا أردنا إيجاده إلا قولة واحدة (كن) فيكون لامراجعة فيها ولا رد ، فهى فى السرعة كلمح البصر لا إبطاء ولا تأخير .

ثم أنبههم على ما هم فيه من غفلة وحمية عن الحق بعد وضوحه فقال :

(واتقد أهلكننا أشياعكم فهل من مذكّر؟) أى ولقد أهلكننا أشياعكم يا معشر قريش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأقتهم بحسب سنتنا فى أمثالهم ، بشتى العقوبات ، ومختلف الوسائل « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ

مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ « أفلا كان لكم في ذلك مزدجر تعتبرون به فتنبهوا إلى ربكم وتساءلوا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ » .

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم وسيحاسبون على النقيير والقطمير فقال :
(وكل شيء فعملوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر) أى وكل شيء تفعلونه ،

فتدسون به أنفسكم من الكفر والمعاصي ، وتدنسونها به من الأرجاس والآثام فهو

مقيد لدى الكرام الكاتبين كما قال : « مَا يَنْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »

فما من صغيرة أو كبيرة إلا وهي مسطورة في دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، فلتمحذروا

أيها الناس ما أنتم عليه قادمون من الحساب العسير على الجليل والحقير ، يوم لا يغني

مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله

بقلب سليم .

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

« يا عائشة إياك ومحترات الذنوب ، فإن لها من الله طالبا » .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيرا إن الصغير غدا يعود كبيرا

إن الصغير وإن تقادم عهده عند الإله مسطر تسطيرا

فأسأل هدايتك الإله فتتند فكفى بربك هاديا ونصيرا

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة في ذلك اليوم - أردفه بما

يناله المتقون من الكرامة عند ربهم ، وما يحظون به من الشرف والرائي ، على

حسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب والعكس بالعكس فقال :

(إن للمتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) أى إن الذين

اتقوا عقاب ربهم بطاعته وأداء فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل

في السر والعلن ، يثيبهم بما عملوا جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور

من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على شاق الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات ، كما قيل للربيع بن خثيم وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه : أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب .

كما ينانون الزلفى عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب ، وهو العزيز الحكيم .
اللهم احشرنا في زمرة من واجملنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع الحبيب ، ذو الطول العظيم .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) الإخبار بقرب مجيء الساعة .
- (٢) تكذيب المشركين للرسول وقولهم في معجزاته : إنها سحر مفترى .
- (٣) غفلتهم عما في القرآن من الزواجر .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى يأتي قضاء الله فيهم .
- (٥) إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسى الرؤوس مسرعين كأنهم جراد منتشر .
- (٦) قصص المكذبين من سالف الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، وما لاقوه من الجزاء على تكذيبهم .
- (٧) توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر .
- (٨) ما يلاقونه من الجزاء في الآخرة إهانة وتحقيرا لهم .
- (٩) بيان أن كل ما في الوجود فهو بقضاء الله وقدره .
- (١٠) نفاذ مشيئة الله وسلطانه في السكون .
- (١١) بيان أن كل أعمال المرء في كتاب قد خطه الكرام الكاتبون .
- (١٢) ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم وما لهم من الزلفى لديه .